



ثمة شبه غريب بين الهدىتين، الأميركيه والروسية، إلى إسرائيل. كما نعلم، الأولى كانت الجولان، والثانية رُفات الجندي الإسرائيلي زخاريا بومل. والاثنتان تحيلان إلى ثلاط حروب .

هضبة الجولان معروفة قصتها: حرب 1967 التي أفضت إلى احتلالها، مقابل تثبيت سلطة حافظ الأسد في أعلى سلطة لبلاده. والتي تحولت لاحقاً إلى مادة بروباغاندا كاذبة عن "تحرير كامل التراب الفلسطيني" .. وما يساويها من رطانة ممانعة هي الدعامة "الفكرية" لنظام الأسد المخلد .

أما رُفات الجندي الإسرائيلي، فتعود إلى الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982، وتسرد وقائعه بحسب الرواية: هناك من قال إنه، بعد أيام قليلة من هذا الاجتياح، حصلت معركة بين الجيشين الإسرائيلي والسوسي. وهناك من يوضح بأن المعركة حصلت بين الجيش الإسرائيلي من جهة، تقابلها من الجهة الأخرى قوات فلسطينية ولبنانية مشتركة، ومعها الجيش السوري. وتبادر النظر إلى أصحاب الأدوار يقف هنا: إذ يتفق الجميع على أن المعركة كانت فخاً وقع فيه الجيش الإسرائيلي، وانقضت عليه القوى الوطنية المشتركة، فأدى إلى مقتل ثلاثين جندياً إسرائيلياً، واحتفاء آخرين، من بينهم الجندي العائد رُفاته إلى مقابر الوطن، موضوع الهدية الروسية إلى إسرائيل. ويجمعون أيضاً، على أن القوات النظامية السورية انسحبت من هذه المعركة بعد ثلاثة أسابيع على إشتراكها فيها؛ ومن دون أثرٍ يذكر غير تلك المعركة التي عرفت لاحقاً بمعركة السلطان يعقوب (في بيادر العدس البقاعية). وبما أن الغزو الإسرائيلي للبنان دام أكثر من أربعة أشهر، يمكن القول هنا أيضاً، بعد الجولان، إن الأسد توقف عن مقاتلة إسرائيل بعد هذه المعركة، حفاظاً، أيضاً، على نفسه .

مع الهدية الروسية، تطلّ حرب ثالثة؛ فيما أن رُفات الجندي الإسرائيلي وُجد في مخيم اليرموك الفلسطيني، الواقع بالقرب من دمشق، فلا بد أن تحضر نكبة عام 1948 التي طردت الفلسطينيين إلى دول الجوار، بما فيها سورية. نكبة أبقت على

أنظمة، وأصعدت أخرى، منها نظام حافظ الأسد.

الهديتان الأميركيتين والروسية تتعشان فصول وقائع حربية، يفترض أن وقتها قد مضى. ولكن لا. لا الحروب تنتهي في منطقتنا، ولا هزائمها تتوقف من توليد نفسها بنفسها، بحيث إنك تعيش على طبقاتٍ من الذاكرة المهزومة، كل واحدة منها تعود إلى حربٍ إلى حقبة حربية، أثمرت ما نحن مُصابون به الآن.

بين الهديتين، الروسية والأميركية، لا يتوقف الشبه هنا. الهديتان تفیدان نتنياهو في الانتخابات التشريعية؛ هذا مؤكّد. لكن صاحبئي الهديتين، روسيا وأميركا، ليستا في خدمة رئيس الوزراء الإسرائيلي؛ بل بخدمة مصالحهما. فوق أنهما في هذه الهدایا، تجسدان، كلٌ على طريقتها، مدى تأثير قراراتها في لعبة الحرب على سوريا. وتقيسان حجم الدور الملعوب على الأرض السورية: حيث تبدو أميركا فوق الجميع، على الرغم من عدم تورّطها عسكرياً، قياساً إلى روسيا. إنها أراضٍ سورياً تلك المهدأة إلى إسرائيل، والعالم كله يقف ضد قرار اعتبارها أرضاً إسرائيلية. ولكن هذه أميركا حتى الآن، فيما هدية روسيا تبدو شديدة الرمزية، أقل استراتيجية من الجولان. ولكنها تعزّز سيطرتها على الأرض، تلك النقطة الصعبة للوجود الروسي في سوريا في مقابل الوجود الإيراني. رُفات جندي قضى منذ 37 عاماً، مقابل الاستيلاء "القانوني" على 1800 كلم مربع من الأراضي السورية (مساحة الجولان)! الفرق شاسع بين الهديتين؛ مع أنَّ وقع الهدية الرمزية انتخابياً لصالح نتنياهو قد يكون أقوى من ضمّ الجولان.

والاثنان تصيبان عصافير عديدة، بعد تحصين العصفور الإسرائيلي: منها إيران، وإفهمها أن الأمر ليس كله لها، لا على الأرض السورية، كما تزعم، ولا على الأراضي المحتلة، كما تعيّي وتتجدد. من العصافير الأخرى تركيا، الأقل سطوة، لكن الغاطسة هي الأخرى في منافسة "ودية" مع روسيا في الشمال السوري. منها الأسد نفسه، المدفع إلى تطوير مهاراته باللعب على التناقضات بين منقذِي عرشه، وباختيار الأقوى بينهم.

انظر إلى ردّ فعل النظام على كلتا الهديتين: في الأولى، أي الجولان، التزم الصمت، وشغل ماكينة "المقاومة" بالبطاريات المعتادة، هنا وهناك من حلفائه وإعلامه. في الثانية، حاول التملّص من ضعفه أمام الروس، فبسطَّ دجله الأهبل، وادعى وزير إعلامه، عماد سارة، أن لا علم لسوريا بموضوع رُفات الجندي الإسرائيلي، ولا بتفاصيل العثور عليه وتسويقه. لكن الرئيس الروسي كذبَ هذا الادعاء، وأكَّد على تعاون رجال النظام مع الروس، لإيجاد هذا الرُفات. كذبٌ ثم تكذيب ثم صمت.. وبعد يومين أو ثلاثة على حكاية الرُفات هذه، يتذكر وزير الخارجية السوري، وليد المعلم، الهدية الأميركيَّة إلى إسرائيل، الجولان، فيطلق الأنشودة: "الخيار العسكري مطروح من أجل استعادة مرفوعات الجولان من إسرائيل" .. فهل من حاجة للتعليق؟

المصادر:

العربي الجديد